مقدمة

عندمـا كنت قد بـدأت للتّوّ العمـل في الإذاعة، كانـت واحدة من أولـى مهامـي مقابلة عازف التشيلـو يو يو ما، وعـازف البيانو إيمانويل أكـس. كنت بالكاد قد تخرجت في الكليـة، وكان الموسيقيون أكبر مني بكثير.

كانـا يتدربان في شقة في الجانب العلـوي الغربي من منزل يو يو مـا؛ من أجل الحفلـة المقبلة في مدينة نيويورك. ركبـت قطار الأنفاق من أمكنة التصوير (استوديوهات) WNYC القديمة في مبنى البلدية. وصلـت إلى الشقـة حاملًا معي آلة تسجيل الأشرطـة الضخمة. قابلني مـا عند البـاب، وأدخلني إلـى غرفة المعيشـة، حيث عانيت فـي أثناء عمليـة إعداد آلة التسجيـل خاصتي، ليس لعدم معرفتـي كيفية القيام بذلـك، ولكن لأنه ومنذ لحظـة دخولي الغرفة، كان مـا وأكس يغيظاني ويمازحانـي، حيث كنت أقهقـه بصوت مرتفع، وكان مـن الصعب جدًّا الانتبـاه إلى الشريـط المغناطيسي البني الرقيـق عندما كنت ألفه من بكرة إلى أخرى.

لقـد بـدأت المقابلة كلهـا وانتهت بهـذه الطريقة، عازفـا البيانو والتشيلو يتبادلان المزاح والدعابة والضحك. كنت قد تعلمت ألا أحدث أيّ جلبـة أو ضجـة عندما يكـون الشخص الـذي أجـري المقابلة معه يتحـدث، وألا أقـول أبدًا أيّ شيء، مثـل آه أو أوه !، وبـدلًا من ذلك علي القيـام بإيمـاءة هادئة بحيـث لا يقاطع صوتي صـوت المتحدث. ولكن أكس وما كانا مبتهجين وفرحين جدًّا لدرجة لا تصدق. وفي النهاية، لم يكن بوسعي إلّا مشاطرتهما الضَّحك.

عندمـا عدت إلـى المحطـة، تصارعت مع الشريـط، في محاولة لتحريـره للبـث. لـم يكـن هـذا مثـل أيّ شـيء لمفهومي عـن الكيفية المفترضـ أن تبدو عليها المقابلة الموسيقيـة الجادة. أدركت في وقت لاحق من ذلك بكثير، أنّ الكلمات الفعلية التي قالها الموسيقيان لم تكن الجانـب الأكثر أهمية من الحديـث، وأنني كنت محظوظًا كثيرًا لتجربة جوهـر علاقتهمـا الإبداعية. وكنت كمن كان يستمـع إلى الموسيقا من وراء الكلمات، والمشاعر التي أعطت قصصهما صدى عاطفيًّا. عندما كان أكس وما يعزفان معًا، تردد حديثهما العفوي بالطريقة نفسها التي كانت تربط بينهما من خلال الموسيقا: بكونهما فنانيْن لاعبيْن رائعيْن، موهوبيْـن، خطيريْن، وأيضًا مزعجيْـن. كان الفرح المكوِّن الأساس في كيفية عمل إبداعهم.

طـوال مسيرتي فـي الإذاعـة العامـة؛ مراسلة، ومقدمـة برامج، ومنتجة، استمعت بعناية لتلك اللحظات عندما يقصُّ فنانًا قصة تكشف عن الـروح الكامنـة وراء إبداعه. عندما صممت برنامـج ستوديو 360

عـام 2000، كنـت مصممًا على تطويـر برنامج يسبر مـا تحت السطح عـن الفن المعاصـر، وثقافة البوب للعثـور على التيـارات الأعمق التي تجرفنـا في طريقها. لقـد كان من المثير جدًّا، خـلال العقد الأول من عمر البرنامـج، الاستماع إلى مئات الفنانيـن، والموسيقيين، والكتاب، والسينمائييـن، يتحدثـون عـن مصـدر إلهامهـم، وكذلك عـن كيفية كفاحهـم مع عملية صناعة الفن، مـا سمح لنا أن نرى مواطن ضعفهم، وكذلك الاحتفاء بنجاحاتهم.

وأنا اقترب من التحدي الجديد في تدوين الكتاب الذي سيستثمر مئـات الساعـات مـن المحادثـات التـي أجريتهـا من خـلال برنامج ستوديو 360، بدأت بالتفكير في بعض الأسئلة الأساسية: ما الذي يجب أن نتوقعه من الفن في القرن الحادي والعشرين؟ ما الذي يكشفه هؤلاء الفنانون لنا؟ ولِمَ نحن مجبرون على النظر والاستماع لهم؟ هناك كثير مـن الإجابات عن هذه الأسئلـة؛ في نظري، العمل الذي يمس العمق هو دائمًا العمل الذي يرتبط مع الحياة. فالفنانون الذين أقع في حبهم هم أولئـك الذين هم على استعداد لفتح أنفسهـم في وجه الهموم، وكذلك متعـة التجربة من أجـل إبداع عمـل يحركني لفهم حياتـي الشخصيّة بطريقة جديدة.

لـذا، فـإن **خيـوط العمـق** التـي اختـرت تتبعهـا عندمـا أعددت فصـول هذا الكتاب يمكن العثـور عليها. وكما قلت عندما بدأنا برنامج ستوديـو 360، هـي حيث يتصادم الفن والحيـاة الحقيقية. وربما بدقّة أكثر، حيث نختبر التذبذب بين الفن والحياة.

ولكتابة سبارك، فقد اخترت قصصًا من الفنانين الذين يقولون لنا شيئًا عن ذلك التذبذب، والمبدعين الذين يلجؤون إلى الناس، والأمكنة، والمواد في حياتهم من أجل دوافعهم وموضوعاتهم. لقد نظمت الكتاب لاستكشاف معالم التناغم العاطفي في كلٍّ من الحياة والفن. فالفصول هي درب عبر التحديات والانتصارات، والتحولات، التي تكشف الروابط مع العالم الطبيعي ومع البيت والأسرة؛ وتكشف عجائب من الطفولة وإحباطات والهامات الشراكات؛ وتتلمس أيضًا عالم الكارثة وتداعياته، عندما يأخذ الفنانون شظايا العالم المحطمة ويضعونها معًا مرة أخرى؛ من أجل أنفسهم ومن أجلنا. يبيّن كلُّ فصل وجهًا مختلفًا من وجوه التجربة الإنسانية، تصارع معه هؤلاء الفنانون ولعبوا.

في الفصل الأخير، يتحدث الفنانون عن كيفية بدئهم العمل، مع قصص عن بدايات إنتاجهم، والبدايات الخائبة، والحاجة إلى الهروب، والابتعاد في بعض الأحيان، وكيفية التعرف إلى عمل أُنجز فعلًا. هذا جزء حاسم من القصة: فلو لم يبدؤوا العمل، لما كانت هناك أفلام، ولا شِعْر، ولا لوحات، ولا موسيقا، ولا أيّ علاقة بين أولئك المبدعين وبيننا.

بعد بضع سنوات من محادثتي مع يو يو ما وإيمانويل أكس، طُلِبَ إلى إنتاج سلسلة إذاعية وطنية في الغالب عن مهرجان موزارت. كان الكاتب المسرحي الإنجليزي بيتر شافير في نيويورك، وكنت قد تدبرت مقابلة معه للبرنامج الإذاعي؛ لأنّ مسرحيته أماديوس قد حُوِّلت للتّوِّ إلى فلم حاز جائزة الأوسكار.

يستكشف شافير العلاقة بين فولفغانغ أماديوس موزارت، الذي كان عبقريًّا بارعًا، وصعب التنبؤ بتصرفاته دائمًا، وأنطونيو ساليري، وهو ملحن البلاط الذي كان يعمل منذ مدة طويلة. وعندما سألت شافير ما عدّه الفرق الأساس بين الرجلين، قال لي: إنه صور موزارت وهو يجري نحو بئر الإلهام ويغوص فيها، رأسه أولًا، دون توقف، في حين مشى ساليري إلى جانب البئر وأطلَّ من علٍ؛ علّه يتمكن من رؤية ما كان في الأسفل قبل أن يرمي شباكه.

الفنانون الذين ستقابلهم في **سبارك** جميعهم على استعداد للغوص، برؤوسهم أولًا، في تجارب الحياة الأولية، المبهجة، وغير الودودة أحيانًا. أصغي إليهم وهم يتحدثون، وأستمع إلى قصصهم عن أساليبهم ومحفزاتهم التي ستعمق تقديرنا لهم. وتروي قصصهم لنا شيئًا عن كيفية السماح للإبداع بالدخول إلى حياتنا الشخصية أيضًا.